فصل

فى أنَّ أصل مذهب الاتحادية واضطرابهم فيه على ثلاث مقالات

ولما كان أصلهم الذي بنوا عليه أن وجود المخلوقات والمصنوعات - حتى وجود الجن والشياطين والكافرين والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان - عين وجود الرب ، لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته ، وإن كان مخلوقاً له مربوباً مصنوعاً له قائماً به ، وهم يشهدون أنَّ فى الكائنات تفرقاً وكثرة ظاهرة بالحس والعقل ، فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة ، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها ، فاضطربوا على ثلاث مقالات ، أنا أبيِّنها لك وإن كانوا هم لا يبيِّن بعضهم مقالة نفسه ومقالة غيره لعدم كمال شهود الحق وتصوره .

* * *

المقالة الأولى

مقالة ابن عربى صاحب « فصوص الحكم »

وهى مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد فى كلامه من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه ، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذى يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى . والله أعلم بما مات عليه . فإنَّ مقالته مبنية على أصلين ..

• الأصل الأول لمذهب ابن عربى « أنَّ المعدوم شئ ثابت فى العدم » :

أحدهما : أنَّ المعدوم شئ ثابت فى العدم ، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة . وأول مَن ابتدع هذه المقالة فى الإسلام أبو عثمان الشحام شيخ أبى على الجبائى ، وتبعه عليها طوائف من القدرية المبتدعة من المعتزلة والرافضة [1] ، وهؤلاء يقولون : إنَّ كل معدوم يمكن وجوده فإنَّ حقيقته وماهيته وعينه ثابتة فى العدم ، لأنه لولا ثبوتها لما تميَّز المعلوم المخبَر عنه من غير المعلوم المخبَر عنه ، ولما صح قصد ما يراد إيجاده ، لأنَّ القصد يستدعى التمييز ، والتمييز لا يكون إلا فى شئ ثابت ، لكن هؤلاء - وإن ابتدعوا هذه المقالة التى هى باطلة فى نفسها وقد كفَّرهم بها طوائف من متكلمة السُنَّة - فهم يعترفون بأنَّ الله خلق وجودها ، ولا يقولون إنَّ عين وجودها عين وجود الحق . وأما صاحب

---

(١) انظر فى التعريف بالقدرية والمعتزلة والرافضة جـ ١ هامش ص ٣٥ ، ٢١٣ ، و جـ ٣ هامش ص ١٢ ، ١١١ (البلتاجى)

(٢ - الرسائل والفتاوى / ٢)

الفصوص وأتباعه فيقولون : عين وجودها عين وجود الحق ، فهى متميزة بذواتها الثابتة فى العدم متحدة بوجود الحق العالِم بها . وعامة كلامه ينبنى على هذا لمن تدبره وفهمه .

وهؤلاء القائلون بأنَّ المعدوم شئ ثابت فى العدم سواء قالوا بأنَّ وجودها خلق الله أو هو الله ، يقولون إنَّ الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة ، وإنَّ وجود كل شئ قدر زائد على ماهيته ، وقد يقولون : الوجود صفة للموجود .

● رد شُبه القائلين بقِدَم العالَم ومادته :

وهذا القول وإن كان فيه شبه بقول القائلين بقِدَم العالَم ، أو القائلين بقِدَم مادة العالَم وهيولاه المتميزة عن صورته ، فليس هو إياه ، وإن كان بينهما قدر مشترك فإنَّ هذه الصورة المحدَثة من الحيوان والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء ، بل هى كائنة بعد أن لم تكن ، وكذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السموات ، والاستحالات القائمة بالعناصر من حركات الكواكب والشمس والقمر والسحاب والمطر والرعد والبرق وغير ذلك ، كل هذا حادث غير قديم ، عند كل ذى حس سليم ، فإنه يرى ذلك بعينه . والذين يقولون بأنَّ عين المعدوم ثابتة فى القِدَم أو بأنَّ مادته قديمة ، يقولون بأنَّ أعيان جميع هذه الأشياء ثابتة فى القِدَم ، ويقولون إنَّ مواد جميع العالَم قديمة دون صوره .

واعلم أنَّ المذهب إذا كان باطلاً فى نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يُتصور تصوراً حقيقياً فإنَّ هذا لا يكون إلا للحق . فأما القول الباطل فإذا بُيِّن فبيانه يُظهر فساده ، حتى يقال : كيف اشتبه هذا على أحد ، ويتعجب من اعتقادهم إياه ، ولا ينبغى للإنسان أن يعجب ، فما من شئ يُتخيل من أنواع الباطل الا وقد ذهب إليه فريق من الناس . ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ (١)، وأنهم : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢).

---

(١) البقرة : ١٨ (٢) الأعراف : ١٧٩

و ﴿ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [١] ، وأنهم : ﴿ فِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [٢] ، وأنهم : ﴿ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [٣] ، وأنهم : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [٤] .

وإنما نشأ – والله أعلم – الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أنَّ الله سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه – أو ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٥] فرأوا أنَّ المعدوم الذى يخلقه يتميز فى علمه وإرادته وقُدرته ، فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة وليس الأمر كذلك ، وإنما هو متميز فى علم الله وكتابه ، والواحد منا يعلم الموجود والمعدوم الممكن والمعدوم المستحيل ، ويعلم ما كان كآدم والأنبياء ، ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب ، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، كما يعلم ما أخبر الله به عن أهل النار : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [٦] ، وأنهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [٧] ، وأنه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [٨] ، وأنه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [٩] ، وأنهم : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ [١٠] ، وأنه : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [١١] ونحو ذلك من الجمل الشرطية التى يُعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته .

---

(١) البقرة : ١٧١
(٢) الذاريات : ٨ – ٩ بلفظ : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي ... ﴾ .
(٣) التوبة : ٤٥
(٤) البقرة : ١٥
(٥) يس : ٨٢
(٦) الأنعام : ٢٨
(٧) الأنفال : ٢٣
(٨) الأنبياء : ٢٢
(٩) الإسراء : ٤٢
(١٠) التوبة : ٤٧
(١١) النور : ٢١

• أحاديث كتابة المقادير وكتابة محمد نبياً وآدم بين الروح والجسد :

فهذه الأمور التى نعلمها نحن ونتصورها - إما نافين لها أو مثبتين لها فى الخارج أو مترددين - ليس بمجرد تصورنا يكون لأعيانها ثبوت فى الخارج عن علمنا وأذهاننا ، كما نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق وإنساناً من ذهب وفرساً من حجر . فثبوت الشئ فى العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه فى الخارج ، بل العالِم يعلم الشئ ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته فى الخارج ثبوت ولا وجود أصلاً . وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « إنَّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال : « أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : رَبِّ وما أكتب ؟ قال : أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » ، وقال ابن عباس : « إنَّ الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ، ثم قال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتاباً ، ثم أنزل تصديق ذلك فى كتابه فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ [1] » .

وهذا هو معنى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده عن ميسرة الفجر قال : قلتُ : يا رسول الله ، متى كنت نبياً - وفى رواية : متى كتُبتَ نبياً ؟ - قال : « وآدم بين الروح والجسد » هكذا لفظ الحديث الصحيح ، وما مايرويه هؤلاء الجُهَّال [2] كابن عربى فى الفصوص وغيره من جُهَّال العامة : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » ، « كنتُ نبياً وآدم لا ماء ولا طين » فهذا لا أصل له ولم

---

(١) الحج : ٧٠ (٢) أى الجهَّال بعلم الرواية والأسانيد ونقد الحديث .

يروه أحد من أهل العلم الصادقين ، ولا هو فى شئ من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ بل هو باطل ، فإنَّ آدم لم يكن بين الماء والطين قط فإن الله خلقه من تراب ، وخلط التراب بالماء حتى صار طيناً ، ويبس الطين حتى صار صلصالاً كالفخار ، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركَّب من الماء والتراب ، ولو قيل : بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال ، مع أنَّ هذه الحال لا اختصاص لها ، وإنما قال : « بين الروح والجسد » ، وقال : « وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته » لأنَّ آدم بقى أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانُ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ... الآية [1] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ ﴾ ... الآيتين [2] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ من طِينٍ ﴾ ... الآيتين [3] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ ... الآية [4] . والأحاديث فى خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة فى كتب الحديث والتفسير وغيرهما .

● روايات حديث : « كنتُ نبياً وإنَّ آدم لكذا » وتفسيره الحق :

فأخبر ﷺ أنه كان نبياً - أى كُتِبَ نبياً - وآدم بين الروح والجسد . وهذا والله أعلم لأنَّ هذه الحالة فيها يُقدَّر التقدير الذى يكون بأيدى ملائكة الخلق فيُقدَّر لهم ويُظهر لهم ويُكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه ، كما أخرج الشيخان فى الصحيحين وفى سائر الكتب الأمهات حديث الصادق المصدوق ، وهو من الأحاديث المستفيضة التى تلقاها أهل العلم بالقبول وأجمعوا على تصديقها وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إنَّ أحدكم يُجمع خلقه فى بطن

---

(١) الإنسان : ١
(٢) الحجر : ٢٨
(٣) السجدة : ٧
(٤) سورة ص : ٧١

أمه أربعين يوماً نُطفة ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمَر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح » - وقال : « فوالذى نفسى بيده إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » ، فلما أخبر الصادق المصدوق أنَّ الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح ، وآدم هو أبو البَشر كان أيضاً من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم فهو أعظم الذُرِّية قَدراً وأرفعهم ذكراً ، فأخبر ﷺ أنه كُتِبَ نبياً حينئذ ، وكتابة نبوَّته هو معنى كون نبوَّته فإنه كون فى التقدير الكتابى ، ليس كوناً فى الوجود العينى ، إذ نبوَّته لم يكن وجودها حتى نبَّأه الله تعالى على رأس أربعين من عمره ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ... الآية [1] . وقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ ... الآية [2] . وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ ... الآية [3] . ولذلك جاء هذا المعنى مفسراً فى حديث العِرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنى عبد الله مكتوب خاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم بأول أمرى : دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام » (هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب) :

حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العِرباض رواه البغوى فى شرح السُنَّة هكذا ، ورواه الليث بن سعد عنه نحوه ،

---

(١) الشورى : ٥٢ (٢) الضحى : ٦ (٣) يوسف : ٣

ورواه الإمام أحمد فى المسند عن ابن مهدى : حدثنا معاوية بن صالح بالإسناد عن العرباض . قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عبد الله خاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم » ... الحديث . وفيه : « كذلك أمهات النبيين يرين » ، وقوله : « لمنجدل فى طينته » أى ملتف ومطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد .

وقد رُوِىَ أنَّ الله كتب اسمه على العرش وعلى ما فى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، ورُوِىَ فى ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التى تبيِّن التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ .

وقد تقدم لفظ الحديث الذى فى المسند عن مسيرة الفجر لما قيل له : متى كنتَ نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وقد رواه أبو الحسن بن بشران من طريق الشيخ أبى الفرج بن الجوزى فى « الوفا ، بفضائل المصطفى » ﷺ : حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو ، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، حدثنا محمد بن صالح ، حدثنا محمد بن سنان العوفى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن يزيد بن ميسرة عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة قال : قلت : يارسول الله ، متى كنت نبياً ؟ قال : « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش : محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه » .

● حديثا استشفاع آدم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهما لا يصحان :

ورى أبو نعيم الحافظ فى كتاب « دلائل النبوة » ، ومن طريق الشيخ أبى الفرج : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن رشدين ، حدثنا أحمد بن سعيد الفهرى ، حدثنا عبد الله بن إسماعيل المدنى عن عبد الرحمن زيد بن أسلم عن أبيه عن

عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال : يارب ، بحق محمد إلا غفرتَ لى ، فأوحى إليه : وما محمد ؟ ومَن محمد ؟ فقال : يارب ، إنك لما أتممت خلقى رفعتُ رأسى إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، فعلمتُ أنه أكرم خلقك عليك ، إذ قرنت اسمه مع اسمك . فقال : نعم ، قد غفرتُ لك وهو آخر الأنبياء من ذريتك ولولاه ماخلقتك » ، فهذا الحديث يؤيد الذى قبله وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة [1] .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يأتى غار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق ، وهو بحراء ، فأتاه الملك فقال له : اقرأ . قال : لستُ بقارىء . قال : فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلتُ : لستُ بقارىء . قال : فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : لستُ بقارىء ، ثم أخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهد ، ثم أرسلنى ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [2] ، فرجع لها رسول الله ﷺ ترجف بوادره » ... الحديث بطوله ، فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئاً ، وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبياً ، ثم أنزل عليه سورة المدثر ، وبه صار رسولاً لقوله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [3] ، ولهذا ذكر سبحانه فى هذه السورة الوجود العينى والوجود العلمى . وهذا أمر بيِّن يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه إلى سمع ، فإنَّ الشئ

---

(١) يشير بقوله : « كالتفسير للأحاديث الصحيحة » إلى عدم صحتهما وكونهما ليسا بمعنى الأحاديث الصحيحة السابقة وإنما يوافقانها من وجه واحد وهو كتابة المقادير قبل خلق ما جرت فيه من الخلق ، وغرضه منها تقوية الشواهد على علم الله بالأشياء وكتابته إياها قبل خلقها ، وأنَّ ثبوتها فى العلم غير ثبوتها فى الوجود .

(٢) العلق : ١ - ٢ (٣) المدثر : ٢

لا يكون قبل كونه . وأما كون الأشياء معلومة للّه قبل كونها فهذا حق لا ريب فيه . وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته ، كما دلّ على ذلك الكتاب والسُنّة وجاءت به الآثار .

• ذكر الوجودين « العلمى » و « العينى » فى سورة العَلَق ، وإثبات القَدَر وكتابته :

وهذا العلم والكتاب هو القَدَر الذى ينكره غالية القَدرية [1] ويزعمون أنّ اللّه لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار ، كفّرهم الأئمة كالشافعى وأحمد وغيرهما

وقد بيّن الكتاب والسُنّة هذا القَدَر وأجاب النبى ﷺ عن السؤال الوارد عليه ، وهو ترك العمل لأجله ، فأجاب ﷺ عن ذلك ، ففى الصحيحين عن علىّ بن أبى طالب قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا رسول اللّه ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة [2] فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد - أو قال : ما نفس منفوسة - إلا قد كتب اللّه مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة » . قال : فقال رجل : يا رسول اللّه ، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ، فمَن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومَن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ ، فقال : « اعملوا فكل مُيَسّر : أما أهل السعادة فيُيَسّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فيُيَسّرون لعمل أهل الشقاوة » - ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [3] ... إلى آخر الآيات » .

وفى رواية : كان رسول اللّه ﷺ ذات يوم جالساً وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال : « ما منكم من نفس إلا وقد عُلِمَ منزلها من الجنة

---

(١) للتعريف بالقدرية انظر جـ ١ هامش ص ٣٥ (البلتاجى) .

(٢) كمكنسة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه وما يأخذه الملك ، يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب .

(٣) الليل : ٥

والنار » ، قالوا : يا رسول الله ، فلمَ نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : « لا .. اعملوا فكلٌ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له » - ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ... الآية » .

● أحاديث القَدَر وكونه يقتضى العمل لا تركه :

وفى الصحيحين أيضاً عن عمران بن حصين قال : قيل : يا رسول الله ، أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال : « نعم » قال فقيل : ففيم يعمل العاملون ؟ فقال : « كلٌ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له » ، وفى رواية : أنَّ رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ . فقالا : يا رسولَ الله ، أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشئ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم من قَدَر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم وتثبت الحجة عليهم ؟ فقال : « لا .. بل شئ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [1] ».

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال : يا رسول الله ، بيِّن لنا ديننا كأنَّا خُلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما يستقبل ؟ قال : « لا .. بل فيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير » قال : ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكلٌ ميسَّر ».

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - قال : وعرشه على الماء ».

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه : يابنى ، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن

---

(١) الشمس : ٧ - ٨

ليصيبك . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أول ماخلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رَبِّ ، ما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » ، يا بنى ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَن مات على غير هذا فليس منى » .

وراوه الترمذى من وجه آخر عن الوليد بن عبادة أنه قال : دعانى - يعنى أباه - عند الموت فقال : يابنى ، اتقِّ الله ، واعلم أنك إن تتقِّ الله تؤمن بالله وتؤمن بالقَدَر كله ، خيره وشره ، وإن متَّ على غير هذا دخلت النار ، إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب القَدَر ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد » .

وفى الترمذى أيضاً عن أبى حراثة عن أبيه أنَّ رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت رُقًى نسترقها وداوء نتداوى به وتُقاة نتقيها ، هل ترد من قضاء الله تعالى شيئاً ؟ قال : « هى من قَدَرِ الله ».

- تعليق العلم بالمحال والممكن الذى لا يوجد لا يقتضى وجودهما فيه :

لكن إنما ثبتت فى التقدير المعدوم الممكن الذى سيكون ، فأما المعدوم الممكن الذى لا يكون فمثل إدخال المؤمنين النار ، وإقامة القيامة قبل وقتها ، وقلب الجبال يواقيت ... ونحو ذلك ، فهذا المعدوم ممكن وهو شئ ثابت فى العدم عند مَن يقول : المعدوم شئ ، ومع هذا فليس بمقدَّر كونه ، والله يعلمه على ما هو عليه ، يعلم أنه ممكن وأنه لا يكون ، وكذلك الممتنعات مثل شريك البارى وولده ، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ويعلم أنه ليس له شريك فى المُلك ولا ولى من الذل ، ويعلم أنه حى قيوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذَرَّة فى السمٰوات ولا فى الأرض . وهذه المعدومات الممتنعة ليست شيئاً باتفاق العقلاء مع ثبوتها فى العلم ، فظهر أنه

قد ثبت فى العلم ما لا يوجد وما يمتنع أن يوجد إذ العلم واسع ، فإذا توسع المتوسع وقال : المعدوم شئ فى العلم ، أو موجود فى العلم ، أو ثابت فى العلم فهذا صحيح ، أما إنه فى نفسه شئ فهذا شئ باطل ، وبهذا تزول الشُبهة الحاصلة فى هذه المسألة .

والذى عليه أهل السُنَّة والجماعة وعامة عقلاء بنى آدم من جميع الأصناف : أنَّ المعدوم ليس فى نفسه شيئاً ، وأنَّ ثبوته ووجوده وحصوله شئ واحد ، وقد دلَّ على ذلك الكتاب والسُنَّة والإجماع القديم ، قال اللّه تعالى لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ من قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ (١) ، فأخبر أنه لم يك شيئاً ، وقال تعالى : ﴿ أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (٣) ، فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خُلقوا من غير شئ خلقهم أم خلقوا هم أنفسهم ، ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعتُ رسول اللّه ﷺ قرأ هذه السورة أحسستُ بفؤادى قد انصدع . ولو كان المعدوم شيئاً لم يتم الإنكار ، إذا جاز أن يقال : ما خلقوا إلا من شئ ، لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئاً معدوماً . وقال تعالى : ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ (٤) ولو كان المعدوم شيئاً لكان التقدير : لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً ، والمعدوم لا يُتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شئ عظيم ، ليس إخباراً عن الزلزلة فى هذه الحال ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ (٦) ولو أُريد به الساعة لكان المراد بها شئ عظيم فى العلم والتقدير .

---

(١) مريم : ٩ (٢) مريم : ٦٧ (٣) الطور : ٣٥

(٤) مريم : ٦٠ (٥) الحج : ١ (٦) الحج : ٢

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ ﴾ (١) قد استدل به مَن قال : المعدوم شئ ، وهو حُجَّة عليه ، لأنه أخبر أنه يريد الشئ وأنه يكونُه ، وعندهم أنه ثابت فى العدم ، وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه . والقرآن قد أخبر أنَّ نفسه تُراد وتكوَّن وهذا من فروع هذه المسألة .

● حقيقة الشئ وماهيته ووجوده الذهنى والخارجى واللفظى :

فإنَّ الذى عليه أهل السُنَّة والجماعة وعامة العقلاء أنَّ الماهيات مجعولة ، وأنَّ ماهية كل شئ عين وجوده ، وأنه ليس وجود الشئ قدراً زائداً على ماهيته ، بل ليس فى الخارج إلا الشئ الذى هو الشئ وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته ، وليس وجوده وثبوته فى الخارج زائداً على ذلك .

وأولئك يقولون : الوجود قدر زائد على الماهية ، ويقولون : الماهيات غير مجهولة ، ويقولون : وجود كل شئ زائد على ماهيته ، ومن المتفلسفة مَن يفرِّق بين الوجود والواجب والممكن فيقول : الوجود الواجب عين الماهية . وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية . وشُبهة هؤلاء ما تقدم من أنَّ الإنسان قد يعلم ماهية الشئ ولا يعلم وجوده ، وأنَّ الوجود مشترك بين الموجودات وماهية كل شئ مختصة به .

ومَن تدبر تبيَّن له حقيقة الأمر فإنَّا قد قدمنا الفرق بين الوجود العلمى والعينى . وهذا الفرق ثابت فى الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك . فثبوت هذه الأمور فى العلم والكتاب والكلام ليس هو ثبوتها فى الخارج عن ذلك (٢) وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التى هى هى ، والإنسان إذا تصوَّر ماهية فقد علم وجودها الذهنى ، ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقى الخارجى . فقول القائل :

---

(١) النحل : ٤٠ (٢) أى الخارج عن الأمور الثلاثة المذكورة .

قد تصورتُ حقيقة الشئ وعينه ونفسه وماهيته وما علمتُ وجوده حصل وجوده العلمى ، وما حصل وجوده العينى الحقيقى ولم يعلم ماهيته الحقيقية ولا عينه الحقيقية ولا نفسه الحقيقية الخارجية فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته إلا أنَّ أحد اللفظين قد يُعبَّر به عن الذهنى والآخر عن الخارجى ، فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود .

وأما قولهم : إنَّ الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها - فالقول فيه كذلك - فإنَّ الوجود المعين الموجود فى الخارج لا اشتراك فيه ، كما إنَّ الحقيقة المعينة الموجودة فى الخارج لا اشتراك فيها . وإنما العلم يدرك الوجود المشترك كما يدرك الماهية المشتركة ، فالمشترك ثبوته فى الذهن لا فى الخارج ، وما فى الخارج ليس فيه اشتراك ألبتة ، والذهن إن أدرك الماهية المعيَّنة الموجودة فى الخارج لم يكن فيها اشتراك ، وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة وليس فى الخارج شئ مطلق عام يوصف بالإطلاق والعموم (؟) وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق وذلك لا يوجد فى الخارج إلا معيَّناً ، فينبغى للعاقل أن يفرِّق بين ثبوت الشئ ووجوده فى نفسه ، وبين ثبوته ووجوده فى العلم ، فإنَّ ذاك هو الوجود العينى الخارجى الحقيقى ، وأما هذا فيقال له الوجود الذهنى والعلمى . وما من شئ إلا له هذان الثبوتان ، والعلم يُعبَّر عنه باللفظ ، ويُكتب اللفظ بالخط ، فيصير لكل شئ أربعة مراتب : وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان ، ووجود فى البنان ، وجود عينى ، وعلمى ، ولفظى ، ورسمى

- ذكر اللّه جميع المخلوقات بوجودها العينى عموماً ثم خصوصاً فى سورة العَلَق :

ولهذا كان أول ما أنزل اللّه على نبيه سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ذكر فيه نوعين فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (١) ، فذكر جميع المخلوقات بوجودها العينى عموماً ثم خصوصاً ،

---

(١) العلق : ١ - ٢

فَخَص الإنسان بالخلق بعد ما عَمَّ غيره ، ثم قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [1] فخَصَّ التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم ، وذكر القلم لأنَّ التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ ، فإنَّ الخط يطابقه ، وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم ، لأنَّ العبارة تطابق المعنى ، فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث : اللفظى ، والعلمى ، والرسمى ، بخلاف ما لو أطلق التعليم ، أو ذكر العلم فقط ، لم يكن ذلك مستوعباً للمراتب .

فذكر فى هذه السورة الوجود العينى والعلمى وأنَّ اللّه سبحانه هو معطيهما فهو خالق الخلق وخالق الإنسان ، وهو المعلِّم بالقلم ومعلِّم الإنسان .

فأما إثبات وجود الشئ فى الخارج قبل وجوده ، فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع ، وهو مخالف للكتاب والسُنَّة والإجماع .

* * *

فصل

فى أن الأصل الثانى لمذهب ابن عربى : وجود الخلق نفس وجود الحق

هذا أحد أصلى ابن عربى . وأما الأصل الآخر فقولهم : إنَّ وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه . وهذا انفردوا به عن جميع مثبتة الصانع من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، وإنما هو حقيقه قول فرعون والقرامطة [2] المنكرين لوجود الصانع كما سنبينه إن شاء اللّه .

---

(١) العلق : ٣ - ٥

(٢) للتعريف بالقرامطة انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢ (البلتاجى) .